

الآليات اللسانية لترقية الخطاب المسجدي

الأستاذ خاين محمد

كلية الآداب واللغات بجامعة الشلف - الجزائر

"كل ما يقدمه المسجد من أعمال علمية تتم صياغتها لغويا من خطبة الجمعة إلى درس الجمعة إلى الدروس المختلفة المتعلقة بالمناسبات وغيرها مما يهدف إلى إحداث نوع من التأثير في رواد المسجد..."

وما يجعل ترقية الخطاب المسجدي ضرورة ملحة تلك الفترة العصبية التي عشناها، وكان من أهم عواملها تطرف هذا الخطاب لدى فئة معتبرة من مُنجزيه، إضافة إلى ما نلاحظه اليوم من تدني في الأداء وبعد عن ملازمة الواقع المعيش، مما يخلّ بالدور الرسالي لمؤسسة المسجد.

سأعمل على مقارنة هذا الخطاب

ارتأيت الإسهام في النقاش الدائر حول ترقية الخطاب المسجدي، وآليات تفعيله وجعله مسائرا للتطورات المحلية والدولية، سعيا مني للمشاركة في المحاولات الجادة التي تتبناها الهيئة الوصية، وعيا منها بضرورة مسايرة منجزى هذه الخطابات لكل المستجدات بما يتطلبه من تكييف لهذا الخطاب وفق مقتضيات العصر، ومتطلبات المرحلة، وذلك لما له من تأثيرات خطيرة على فئات عريضة ممن يتلقونه، وكذا لتداعياته المختلفة على مختلف مناحي الحياة، اجتماعيا، وثقافيا، وسياسيا فهو خطاب مستمر، بتسم بصفتي اليومي والدائم، وذلك من منطلق أن:

اللساني الغربي، بمعنى أننا سنحاول استثمار ما يتوافق وطبيعة هذا الخطاب، ومقاصده الشرعية، فالحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها.

مفهوم الخطاب: تعرّف الموسوعات الخطاب على أنه: "متوالية شفوية أو كتابية منتجة من قبل متكلم معين في مقام تواصل محدد"، أي أن الخطاب له مرسل ومتلق وله ارتباط باللحظة التي ينتج فيها ولها.

وقد قام اللساني الفرنسي دومينيك مانغينو (D.Maingueneau) بعملية حصر للمفاهيم التي يحيل عليها مصطلح خطاب في:

- معادل للكلام بمفهومه السوسيوي، في ثنائيتة: لسان/كلام.

- هو وحدة ذات بُعد أوسع وأرقى من الجملة ومكافئة للنص.

- يسمح استعمال مصطلح الخطاب وبالأحرى الملفوظ ضمن المنظور التلّفظي التداولي بالتركيز على الخصائص الدينامية للتلفّظ، وعلى العلاقة الناشئة بين شركاء العملية

من منظور لساني صرف، ففي تقديري هو الجانب المغفل في الدراسات التي تناولته بالمدارسة والتحليل، ومرد الاهتمام بالبعد اللساني للخطاب المسجدي، كون اللغة الحامل المادي للمضامين التي يروّجها، أو الرسالة المراد تبليغها، وزيادة على ذلك فإنها تتحول في حالات كثيرة من مجرد وسيلة للاتصال، أو قناة يمرر عبرها الخطاب، إلى أداة لممارسة السلطة، والسلطة هنا بمفهومها المطلق، فالتأثير الضاغط على المتلقي هو شكل من أشكال السلطة. وتحويلها إلى وسيلة للتدليس وجه آخر من وجوه ممارسة السلطة، وعليه يصير لزاما علينا ملامسة هذا المكون مستثمرين في ذلك الحصيلة العلمية، والتراكم المعرفي الذي توفره لنا اللسانيات في مختلف فروعها، وخاصة في حقلي اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب.

مما ينبغي التنبيه إليه هو أن القصد من وراء هذه المقاربة هو الاستئناس بالتجارب العالمية الرائدة، وليس إقحام الخطاب المسجدي في متاهات التحليل

التّواصلية، وكذا السّياق المسجّل فيه التّلفّظ.

- يحال بهذا الدّالّ اللساني على المحادثات، التّفاعل الشفوي.

- تعيّن به بعض أنماط الملفوظات الخاصة بفئات اجتماعية معيّنة كالخطاب الأنثوي والخطاب الإداري والخطاب المدرسي.

انطلاقا من المفهوم الأخير يمكن لنا أن ندرج الخطاب المسجدي ضمن الملفوظات الخاصة بفئات اجتماعية معيّنة، لأنّه يتوجه إلى فئة عمّار المساجد، وهم يقدرّون بعشرات الملايين. وهنا مكمن الأهمية، وخطورة الدور الذي يؤديه هذا الخطاب.

البعد التداولي للخطاب المسجدي: نجيز لأنفسنا إدراج الخطاب المسجدي في مختلف تمظهراته، ضمن دائرة الخطابات التداولية، حسب التصنيف الذي وضعه اللساني الكندي جان دوليل (J.Delisel)، نظرا لكونه خطابا ذا قصدية نفعية تتجلى في عمله على دفع المتلقي إلى التصرف إيجابيا إزاء

المضامين الفكرية التي يحملها، كما أن من مقصديات إنشائه تبليغ رسالة إلى متلق مخصص، والانتقال به من مجرد التلقي إلى فعل التبني بوساطة تعديل سلوكه.

يحيل هذا الدارس بمصطلح التداولية على تلك الخطابات التي تعمل على تمرير معلومة/خبر ما. من ههنا يكون للبعد الجمالي فيها موقع هامشي، وبالتالي تصير التداولية مقابلة للأدبية، وإن لم ينتف عنها أي طابع جمالي، كما يفرض هذا الدارس إطلاق وصف التواصلية عليها انطلاقا من مسلمة مؤداها أن أي خطاب لا يخلو من سمة التواصل أو الوظيفية.

ما يميز الخطاب المسجدي عن سائر الخطابات التي من جنسه أنه يتعامل مع المقدس، ومن ثمّ فإنّه يمتلك الخصائص التي تجذّره في ذات المتلقي، وبالتالي تعمل على الإسهام في نجاحه في تحقيق غايته، شريطة أن يُوطر بمجموعة من المرجعيات الشرعية والوطنية واللسانية الثقافية. ومن ههنا جاز لنا القول إنه يمتلك سلفا المؤهلات

وموضوعية كثيرة يبقى أمر تناولها من اختصاص القائمين على القطاع. ونحن لا نَقُولُ على القائمين بأمر هذا الخطاب، بل نكن لهم كل الاحترام والتقدير ولكن لابد من مكاشفة الذات، فهذا الخطاب مازال: "يفتقر كثيرا إلى المؤهلات التربوية التي ترشحه ليكون قادرا على توجيه سلوك الفرد والمجتمع نحو مقاصد رسالة الإسلام الواضحة وغاياتها المثلى، ويصوغ المثل العليا التي تمثل إحساسا مشتركا بين سائر أفراد المجتمع ومؤسساته".

ما يهمننا من أمر هذا الخطاب في هذا المقام هو الجانب الأدائي، المرتكز على بنية اللغة، ونسقها العلاماتي، والذي يمكن تَمَثُّله من خلال بعض المظاهر التي نراها من إقبال المصلين على هذا المسجد مثلا رغم بعد الشُّقَّة أحيانا، وإدبارهم عن ثان برغم قربه من مقر سكناهم، وحجتهم في ذلك البحث عن تحصيل الفائدة لأن لخطيب الأول قدرة على الإقناع، والتأثير، وأنهم لا يحسون بالرتابة حين الإصغاء إليه، أو أنه يطرق موضوعات تهمهم، مع علمنا أن

والشروط الفاعلة لإنجازه في ملفوظات مُسَيِّقَة (Contextualisés)، وأهم هذه الشروط هيبة الموقف، وقدااسة المكان اللذان يَمَكِّنَان المرسل (الخطيب) من ممارسة سلطة روحية على المتلقين (المخطوب فيهم) مما ييسر عليه إحداث تأثير ضاغط لصالح الرسالة المبتغى تمريرها.

وهذا ما يعني بدهاءة أنه على معدي هذه الخطابات أن يكونوا على وعي مؤسس معرفيا بهذه المعطيات القبلية، وذلك بتأطير ملفوظاتهم بالمرجعيات المتعارف عليها، وفق ما تتيحه اللغة من إمكانيات تعبيرية إن على مستوى الاختيار أو على مستوى التركيب.

واقع الخطاب المسجدي: ما يلحظه المتأمل في راهن هذا الخطاب أنه ترك لاجتهادات مُنْجِزِيه، وبذلك تباينت وتنوعت طرائق التبليغ وأساليب العرض من مرسل إلى آخر قوة وضعفا. ونحن بدعوانا هاته لا ننكر الجهود المبذولة على مر العقود، والمتجسدة في محاولات جادة لتأطير هذا الخطاب، إلا أنها بقيت دون المأمول، وذلك يرجع إلى أسباب

لها، والمتمثلة في: كيف نرقى بالخطاب
المسجدي لسانيا، بغية الوصول به إلى
التكفل بانشغالات متلقيه؟

المنوال الإجرائي لترقية الخطاب
المسجدي لسانيا: إن الخطاب المسجدي
بوصفه خطابا عقديا تربويا يتوجه إلى
فئات عريضة من المتلقين على مختلف
مستوياتهم الثقافية، وتباين مراتبهم
الاجتماعية، واختلاف مشاربهم
السياسية، وتنوع فئاتهم العمرية، يشبه
في بعض مظهراته الخطاب التعليمي
الذي يراعي في إعداد مسأله الفروق
الفردية بين المتعلمين، ولكن هذه
الفروق تبدو أكثر حدة لدى جمهور
المتلقين للخطاب المسجدي، للخصائص
المشار إليها، لذا ينبغي له الاستعانة
بمجموعة من الآليات المساعدة على
ترقيته، والرفع من قدرته التواصلية،
لأن قطب الرحي في أية عملية تواصلية
تتم بين مرسل ومتلق تنبني على
ما ينعكس بالكفاءة التواصلية (La
competence communicative)
في الدراسات اللسانية المعاصرة،
حسب الطرح الذي جاء به دال هايمس
(Dell Hymes). والتي يراها تكمن

المرجعية الشرعية واحدة في مساجدنا،
وتراهم يجهرن بتذمرهم من الثاني،
ويرون في يوم الجمعة - وهو خير يوم
طلعت فيه الشمس - مجرد أداء للفريضة
لا أكثر ولا أقل، وإن حاولت الاستفسار
منهم ذكروا لك عشرات الأسباب
والمبررات، وأنهم لو وجدوا موقعا آخر
أقرب إليهم لما صلوا وراء ذلك الإمام
ولما استمعوا إليه.

وإن نحن أمعنا النظر في مبرراتهم
لوجدناها كلها تدور حول لغة الخطيب،
طريقته في التبليغ، منهجه في العرض،
آلياته الحجاجية لا تفي بالمطلوب،
يطرق موضوعات مستهلكة، أو قد
تجاوزها الزمن، يستطرد كثيرا، غير
موضوعي في الطروحات التي يقدمها،
وقليلا ما تكون المبررات ذات صلة
بشخص الخطيب.

ما يستشف من هذه المبررات أنها
تعود إلى معوقات لسانية تسبب تشوشا
على التواصل السليم بين المرسل (الخطيب)
والمتلقين (المخطوب فيهم).

من ههنا تجد هذه الإشكالية
مشروعية طرحها، والبحث عن حلول

غير ظروف الأجداد... إن بعض فقهاءنا الذين كتبوا فصولا وألفوا مجلدات في غسل الأطراف أو غيرها من أبواب الفقه لم يهتموا كثيرا بجانب التربية والتزكية..."

2- حسن استثمار المكون السردى قصد أداء الوظيفة الخطابية، وذلك بتحيين (Actualisation) القصص القرآني، والموروث الإسلامى المتجسد في سيرة المصطفى عليه السلام، وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، بواسطة استحضار الحدث، وتقديمه في قالب تشويقي يجنب الرتابة الناجمة على اعتماد الخطاب التقريرى المباشر، بمعنى أن لا نقدم وعظا حافيا قائما على الترهيب والتخويف، وبذلك نحول الخطاب المسجدي من خطاب قيمى يبنى في أساسه الأول على مفاهيم مجردة، إلى خطاب يصوغ قيمه في نماذج مثلية مجسدة في قالب سردي، وهذا ما يعنى بدهاءة أن يصير السرد أداة للإقناع، وهو ما يمكن وصفه بالاستراتيجية الجديدة للتواصل الإنسانى، وهو الأمر الذى دفع أحد الدارسين إلى نعت الإقناع،

في القدرة على استثمار وتوظيف اللغة في مختلف السياقات الخطابية ولكافة الأغراض.

ولنا أن نجمال هذه الآليات في النقاط الآتية ببيانها:

1- اعتماد آلية التحويل (La transposition) أسلوبا في تقديم الرسالة المسجدية، بواسطة اختزال وتبسيط مضامينها الفكرية، وتيسير مصطلحاتها المفتاحية، وحسن برمجتها، وانتقاء السياق المناسب لتقديمها. وهي آلية شائعة في حقلى التربية والتعليم القصد منها نقل المعرفة بسلاسة ويسر وكذا تحقيق النجاعة المبتغاة.

يكتسب هذا الإجراء مبررات تبنيه في الخطاب المسجدي من ضخامة التراكم المعرفى الحاصل عبر العصور والحقب الزمنية، والتي يستحيل على الخطاب المسجدي استيعابها بكل تنوعاتها وتشعب تفرعاتها، وفي أحيان أخرى تضاربها، إذ: "لا يكفي أبدا الاعتراف من التراث بدون غربلة ولا تصفية وتقديمه هكذا للناس اليوم وهم يعيشون ظروفًا

وهو الغاية النهائية من وراء العملية السردية، إلى كونه إقناعاً لا يكشف عن آليات اشتغاله، وذلك بقيامه على الانفعال للوصول إلى قلب المتلقي.

3- إجادة توظيف التلوينات الصوتية أثناء تأدية الخطاب، لأن في ذلك إمساكاً لأفق المتلقي، كأن يظهر التساؤل في نبرات الصوت في موضع الاستفهام مثلاً، وقس على ذلك باقي المواقف التي تتجسد فيها اللغة من خلال تفاعلها مع سياق الخطاب. فقد يذهب ألق الخطاب وبريقه رتبة الصوت، وأطراد النغم السائر على إيقاع واحد.

4- إحكام تسييق (Contextualisation) الملفوظات (Enoncés) المتمظهرة في منجز لساني عن طريق استثمار محفل الخطاب، بوصفه أهم العناصر المسهمة في تداوليته، وهو ما يعرف في الموروث اللساني العربي بمطابقة الكلام لمقتضى الحال.

لأن الملفوظات المُسيَّقة هي وحدها التي تمتلك حق التأدية اللغوية التامة، فليس مهماً أن يكون المرسل صادقاً ومخلصاً لمهمته بل الأهم من ذلك أن

يحسن قول الحق دون أن يחדش مشاعر المتلقين، وهذا بتجنب التعريض والتهكم والتنكيت على الناس، فقد لاحظنا أن بعض من يوظف هذه الآليات - وإن كانت لسانية- قد أضروا بالخطاب المسجدي، من حيث أرادوا الإصلاح، وهو عنف لفظي لا يرضاه مقام المسجد، وتلك صفات لا يرضاها الإسلام في خلق المسلم العادي، فما بالك إذا صدرت ممن يتصدى للوعظ والإرشاد، ولنا في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام القدوة والنموذج، فقد كان إذا بلغه أمر عن جماعة أو فرد لا يسمي أحداً باسمه، ولا يذكره بصفته، ويلمح بعبارة اشتهرت عنه عليه السلام: ((ما بال أقوام)). كما لم يكن عياباً ولا سباباً ولا شتاًماً.

فعلى الخطيب أن يهتدي بالهدي القرآني، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَلَّتَى هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل:

125. فالدعوة بالحكمة، والجدال بأحسن الطرائق يكون بإجراءات لسانية تنبني على مجموعة من المبادئ كنا قد طرقتها لكن لا بأس من إعادة لملمتها

الناجم عن البحث عن الإيقاع الذي تحدثه الفواصل المسجوعة، كل ذلك على حساب الرسالة، والمعنى المراد تبليغه، أقول إن كان ذلك مقبولا، وسمة من سمات الخطابة فيما مضى، فإن ذلك الزمن قد ولى، فما على خطبائنا إلا التكيف مع متطلبات راهنهم، الذي تسيره فلسفة التواصل المنبئية استراتيجياتها الظاهرة والمضمرة على المقولة الشهيرة: في بلد التواصل المعنى وحده هو الملك.

6- كسر أفق التوقع (Horizons d'attente) وفق ما تنص عليه أحدث نظريات القراءة والتلقي، وذلك من خلال تنويع طرائق التبليغ، وتجنب تكرار الموضوعات، عن طريق تنويع السندات التي تكون منطلقا للخطاب (آية قرآنية، حديث نبوي، مقولة صحابي، حادثة تاريخية، ظاهرة اجتماعية...)، وهذا ما يفرض على المرسل (الخطيب) المسائرة الدائمة للمستجدات المجتمعية، وتحديث معارفه، ومواكبة التطورات المحلية والعالمية والانفتاح على الآخر، وهي عوامل كفيلة باكتساب مهارات التبليغ،

في هذه الثلاثية، فهي: العلم بحال المخاطب، ومقام الخطاب، وقوانين الخطاب.

5- استثمار اللغة الوظيفية التي تسري في الفضاء السوسيو-ثقافي للمخطوب فيهم، عن طريق حسن الانتقاء للتعابير ذات التواتر العالي، المفهومة دلالاتها من قبل أكبر شريحة ممكنة لدى فئة المتلقين، وهو مما يعني ضمنا، تجنب الزخرفة اللفظية المبالغ فيها، والإغراق في كثرة الفواصل المسجوعة، حتى أن كثيرا من رواد المساجد تيقن في خلداهم أن ذلك يعود إلى طبيعة الخطاب المسجدي، مع العلم أن رسول الله صل الله عليه وسلم - وهو أسوتنا - كان يتجنب هذه الأسجاع وتلك الزخرفة في خطبه وأحاديثه، وقد تواتر عنه ذلك وعرف به، وهو أفصح العرب، وما زالت ملفوظاته مفهومة وواضحة لدى العموم، على الرغم من تقادم العهد بيننا وبينه، في حين أن كثيرا من خطابات أئمة مساجدنا الذين يلجأون إلى مثل تلك الأساليب المغرقة في الغموض، بفعل التعقيد اللفظي

ومن ثمة الوصول إلى إنجاز خطابات فاعلة.

7- الاستعانة بآليات التواصل غير اللسانية من إيماءات وحركات اليدين وملامح الوجه، وفي هذا شحن للخطاب، وتضخيم له من الداخل، ونفخ من حيوية الفعل الإنساني، وإخراج له من رتبة الإلقاء، المؤدي إلى شرود المتلقي، وغفلة عن رسالة الخطاب، فرب إشارة أبلغ من عبارة، إذ الهدف في الأول وفي الأخير هو الوصول إلى تعديل السلوك، والتخلق بأخلاق الإسلام، ولكن هذا لا يعني الإكثار من الحركات فذلك يربك المتلقي، "ويدفعه لمتابعة حركات الجسم وبالتالي عدم التركيز على القول" ويجعل من الخطاب خطاباً تهريجياً.

الخاتمة: بعد هذه الإطافة السريعة في رحاب الخطاب المسجدي، أن لنا أن نحصل في كون هذه الآليات المتحدث عنها، فيها ما هو مرتبط بطبيعة الخطاب، ومنها ما هو ذو صلة بذات المخاطب، وهي بطبيعة الحال غير كفيلة وحدها بترقية الخطاب المسجدي، وإنما نعتبرها من أهم العوامل المعينة على

ذلك نظراً لكون اللغة أهم مكون خطابي، فإذا ما أحكم البعد اللساني، وروعت الشروط الموضوعية الأخرى في إعداد الخطاب، وهي كما هو معلوم مكونات غير لسانية، بلغ الخطاب الغاية التي وضع لها.

وللوصول إلى ذلك فإن على الخطيب أن ينمي قدراته الذاتية، ويعد خطاباته بنفسه معتمداً على المرجعيات المؤطرة للخطاب المسجدي، لأنه دون ذلك - هذا في رأينا على الأقل - لن نصل إلى تأسيس خطاب مسجدي بالمواصفات التي ننشدها، أما إن بقي الوضع على ما هو عليه من لجوء عدد لا بأس به من خطبائنا وأئمتنا إلى عملية النقل الحرفي لخطابات ومواعظ ودروس دون تكييف أو تمحيص وتقديمها بعواهنها، كأن يقوم الخطيب مثلاً بالحديث عن مضار الاختلاط في البحر بقرية من قرى جنوبنا العامر، فهذا ما لا يخدم الرسالة المسجدية، وتبقى المساجد مجرد دور تعبدية تمارس فيها طقوس الصلاة.

والذي يدفعنا إلى مثل هذه الأحكام هو الخوف على مؤسسة المسجد في

الدراسات

قيل: "لا تأخذ القرآن عن مصحفي، ولا العلم عن صحفي". وقد عانينا من تلك الويلات، ونحن في غنى عن مثل هذه الثقافات الوافدة، والتي ضررها أكبر من نفعها. ■

ملاحظة: للموضوع مراجع

عصر تعدد الوسائط، فالمتلقي، وخاصة المتلقي العادي إذا لم يجد ضالته في المسجد، فإنه سيلجأ إلى الفضائيات وشبكة الإنترنت لإشباع نهمه وفضوله المعرفي وفيها ما فيها من الغث والسمين، وبذلك يكثر المتنطعون والمتفهبون الذين يفتقدون التأطير الشرعي والعلمي والثقافي، وقديما

